

الحياة المشرقة

للاستاذ محمود محمد عماره

المدرس بمعهد دمشق الديني

إلى أن يصبح العصيان عنده عادة .
والعادة طبيعة ثانية !

ومن ثم . يمضى مع الشيطان في
رحلة بعيدة المدى . . لا يلوى زمامه
صيحة نذير . . أو تجربة خبير . .

وتمر الأيام تنرى . . فيبلى
من نسيج الفضيلة بقدرها .

وفي هزة من هزات الحياة . . قد
يصحو الضمير . ويتحول همسه
الخافت إلى رعد قاصف .

فتسرى العافية بين أعطاف العقل

الغافى .

ثم يفاجأ الإنسان بركام من الخطايا
تنوء بحمله الجبال .

ويقف على مفترق الطرق . .
كبيكل معتمصر . كطيف حائر . .
كروح هائم شارد .

لا يجد له في الأرض مقعدا . .

في فترة من فترات الضعف البشري
عندما يخفو الرقيب في كيان الانسان
فتأخذ العقل سنة من النوم . .
فيستمرى لذة الكرى . .
في هذه اللحظة قد تنحل عقدة
الإرادة . . ويتداعى بناؤها .

فتنطلق الشهوة عارمة . . وتندفع
الغريزة قاصمة .

ثم يلتقى الإنسان بالشيطان في
جولة . معصوب العين لا يدرى إلى
أين المساق !

حتى إذا فاق من غفوته . . فتمح
عينيه ليرى دماء الفضيلة مبعثرة
هنا وهناك . .

وربما يجد في الخطيئة لذة زينها له
شيطانه . لم يحس بمثلها وهو يمارس
الفضيلة . وبين دعوة الدنيا . ووقدة
الخوأس . . يعود مرة . . ومرة . .

ولا . في السماء مصعدا !

ثم يتطلع إلى السماء . . يتناوشه
الأمل والخوف . . الأيس والرجاء .
تدوى في كيانه هذه الهتافات :

هل تقبل السماء توبة رجاء غاب
تحت ركام من الخطايا ؟ !

هل تحترق الضراعة الحارة حجب
السماء . . فتتنزل على القلب الطواع
بوارق الأمل . . يفتح معها
الحياة ؟

لقد عبدتك يا ربى سنين عددا . .
ثم اتزعتنى الشهوات من بين
أحضان الفضيلة انزاعا . .
فانعكست الآية :
إذ عبدتك صغيرا . . وعصيتك
كبيرا . .

عصيت هوى نفسى صغيرا وعندما
رمانى زمانى بالمشيب وبالكبر
أطعت الهوى عكس القضية ليتنى
ولدت كبيرا ثم عدت إلى التصغر
يارب : عبدك بيباك . . ذهبت
أيامه . . وبقيت آثامه . . وانقطعت
شهواته وبدت تبعاته . .

فارض عنه . . فإن لم ترض عنه
فاعف عنه . . كم تمهيت إلى يارب

بالنعم . . مسح غناك عنى : وم
تبغضت إليك بالمعاصى . . مع فقري
إليك . .

يا من إذا وعد وفى : وإذا أوعد
عفا : أدخل كبير جرمى فى عظيم
عفوك يا أرحم الراحمين .

ولسكن ضراعات التائبين ليس
بيننا وبين الله حجاب :

والمدد الوافد سرعان ما يهبط
على هذا القلب المحترق : من فوق
سبع سموات :

فإذا البكاء هناء : وإذا الاشرار
مكان الاحتراق ! !

وقبل أن تتخلص ظلال الأمل
فى خيال هذا الإنسان ، يملأ الله روعه
بهذه البشرى :

قل يا عبادى الذين أسرفوا على
أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن
الله يغفر الذنوب جميعا .

ويقتضى القلب سب الجزوع :
كصفور بلبله القطر : أزهرة باكرها
الندى !

وهنا يلح فى وجداننا المعنى
الحقيقى للآية السكرية :

فليست هى الموبة فى أيدي

الجماهير : تركب باسمها الجرائم :
وليست هي مادة في القانون قد
تخضع للأهواء والمطامع .

وليست الآية شجرة وارفة الظل
في طريق عالم : ينفياً ظلها الفصالح
والطالح : الناسك والفاتك :

بيد أنها رحمة مهداة : للذين
استخفهم الشيطان : وأسكروهم بحمرة
الآثم زمتنا :

ثم صحا فيهم الضمير : ولستهم
حرارة الندم : فأقبلوا على ربهم
هرعون :

عندئذ تنزل عليهم : فتسرى في
حلو قههم كالماء الزلال : والراححة
الغنياء : بعد أن اشتط المزار وطال
السفر :

وبهذا : نلتقى بالثقة الكاملة في
الاسلام ومنهجه الراشد في تربية
النفوس :

فعند ما يسأل الانسان نفسه :
ماذا ستكون النتيجة : لو ترك
إنسان من هذا الطراز للهوم تنهش
فؤاده : والندم الملاح يحصر كبده ؟
واحد من اثنين :

إما أن ينطلق بحا غاصنا :

يقتلع أشجار الفضيلة وبذور ثمارها :
لا يؤمن بعرف : ولا يخضع لقانون :
ولما أن يستسلم لليأس القانط :
فيموت كمدا !

وكلا الأمرين : أحلاهما مر ! !
يقول أحد العلماء :

« إما عزلة قاتلة في أطواء ندم
كثيف : لا تنفذ منه شعاعة أمل :
وهذا هو المسخ الذي يحيل الإنسان
إلى عالم الموات :

وإما تحلل وانحلال : لا يبقى على
فضيلة أو خلق !

هكذا تكون موجات اليأس
دائماً لا تدفع اليائسين إلا إلى هذين
الطرفين المتناقضين ،

ولكن الإسلام يسلك بالمذنبين
طريقاً قاصداً : لا ترى فيه عوجاً
ولا امتاً : فـ « كل بني آدم خطاؤون
وخير الخطائين التوابون » ،

وقد تكون الأخطاء دروساً
تمدنا بالخبرة : ونستلمها : فن
الحياة !

وإذا ملكاتنا تخرج من خلال
هذه الخطايا : متفتحة : وكما تخرج
الزهرة يانعة من بين

من أجل هذه المعاني . يبسط
الإسلام جناحيه : للذين أضلناهم
العذاب وتنكرت لهم الأيام :
يحملهم إلى عالم جديد : ينسون
في رحابه ذكريات الماضي : فتشمو
فيهم الطاقة الروحية . ويملاؤن الدنيا
من جديد عدلا وفضلا : وإلى هنا
سنفتح أعيننا جيدا : لتابع في شوق
غامر فصلا آخر في مسرحية الإسلام
الحالدة :

فالإسلام لا يكتب في بمشاعر الندم
تفرق في حنايا القلب :
ولا يكفيه أن ينتفض الانسان
فتساقط عنه الأوزار كأوراق
الخريف :

لأن هذه المشاعر الخائبة : لا بد
أن تتحول في دنيا الناس إلى أعمال
جسام . .

والعزم على مصاحبة الفضيلة :
لا بد وأن يكون أساسا وطيدا لبناء
ضخم من العمل الصالح :

ومن ثم فهو ينتقل بالتأنيب - بعد
قبول توبته - نقلة أخرى : فيوجه
إليه أمره بأن يعمل ويعمل . .

: بحيث لا يقف عند هذا الحد
السالب : لا بد من شحنة « موجبه »
كي تكتمل الدائرة : فتسكب هرب
النفس . . وتسعى للحياة معيها :

اقرأ قوله سبحانه وتعالى :
« إلا من تاب وآمن وعمل عملا
صالحا : فأولئك يبدل الله سيئاتهم
حسنات وكان الله غفورا رحيما »
فهنا يذكر التوبة : ثم يقف على
أثرها بالعمل الصالح : وعمل عملا
صالحا : ليملأ الفراغ المتخلف عن
بجائية الرذيلة : ثم نقرأ قوله تعالى :
« إلا الذين تابوا وأصلحوا
واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله
فأولئك مع المؤمنين »

واختيار لفظ : وأصلحوا :
يبيح بالتائب أن يتقدم ويصلح
ما أفسده .

فإذا كان قد تسبب في خصام
شخصين فليحاول أن يجمع بينهما :
وإذا اقتطع شجرة فليزرع
أختها :

وإذا كان قد سرق فليؤد المسروق
إلى ذويه . .

وبذلك التوجيه السديد لا يحسن
الإنسان إلى المعصية مرة أخرى
كما يقرر علماء النفس والتربية ..

ويمكن نقف الآن خاشعين بين
يدين الإمام علي رضي الله عنه
ليبين لنا معالم الطريق إذ يقول :
« على الماضي من الذنوب الندامة :
وللفرائض الإعادة . ورد المظالم
واستحلال الخصوم ..

وأن تعزم على أن لا تعود . وأن
تذيب نفسك في طاعة الله تعالى كما
أذبتها في المعصية ..

وأن تذيبها مرارة الطاعات .. كما
أذقتها حلاوة المعاصي ،

ثم نصت إلى الإمام الغزالي وهو
يرسم لنا المنهج العملي للسلوك فيقرر
أن التوبة الصحيحة . أن تتوقف
وتسكف عن الذنب : ثم تحاول جبر
مافاتهك .

فأنت إذا نفخت في المرأة رأيت
سحابة . وسحابة فوق أخرى ستصبح
سوادا ، فلا يكفي أن تسكف عن
النفخ ، بل حاول أن تجاوا الصدأ
فلتراكم ..

وذلك بأن تعمل حسنة مضادة

للسيئة التي ارتكبتها .

فإذا كنت تشرب خمرًا فتصدق
بشراب حلال . وإذا اغتبت إنسانا
فاستغفر له في الحديث : وأن ترد
المال إلى من أخذته منه ظلما ، وإلا
فتصدق به على المحتاجين ..

والقاتل السفاك يعق العبد لأنه
إحياء لهم ، ويكفر عن سماع
الملاهي بتلاوة القرآن الكريم
ومجالسة أهل العلم ،

وإلى هنا ، أكاد أسمع ها هنا
يقول :

لقد أثبت أن العمل طبيعة الإنسان
وأنه قد يخطئ في بعض تصرفاته .

والإسلام يدخل في حسابه هذا
الاعتبار ، وهذا إجراء حميد منه ،
ولسكنه بعد وقوع المعصية فعلا ،
إلا أننا نريد أن نعرف مبلغ جهد
الإسلام في محاربة الجريمة حتى لا نتقع .

ماهي الوسائل التي اتخذها ليجنب
الإنسان ويلات الوقوع في الذنب
أوارتكب الجريمة ؟؟

وهذا ما سنعرض له في العدد
القادم إن شاء الله .

محمود محمد عماره